تجربتي في الجامعة ورؤيتي لدورها التعليمي

دوريس شكري*
(ترجمة لميس النقاش)

الضيوف الكرام، أعضاء مجلس الأمناء، أعضاء هيئة التدريس، الطلاب المتقدمون لنيل الدرجة الجامعية، السيدات والسادة:

قبل ثلاثة أسابيع كنت جالسة وعائلتي نتناول الغداء في مطعم «البيانزا» راضية مطمئنة ناسية أن «دوام الحال من المحال»، فإذا بتليفوني المحمول الذي أقتنيته مؤخراً ولا يزال لرنينه وقع مزعج عليّ، يأتيني بصوت مدير الجامعة للشئون الأكاديمية سوليفان في طلب بسيط: أن ألقي كلمة في هذه الأمسية. ولعل هذا يبدو لكم وأنتم الجالسون في استرخاء في مواجهة هذه المنصة أمراً هيناً، ولكن فلتتأملوا عدالة القدر: فقد كان موقعي على مدى ستة وأربعين عاماً خلف المتحدثين، أرقب ساعتي وأخفي تثاؤبي أو أقرأ كتاباً نصف مصغية للحكمة التي يتلونها على الخريجين متحدثاً بعد آخر؛ كانت نواياهم جميعا طيبة كنيتي اليوم. أما وقد بدأت أستعد لحمل خيمتي والرحيل في صمت إلى صحراء التقاعد خلسة إذ بي أجد نفسي مطالبة بالوقوف هنا ومن ورائي زملائي يقرأون ما يقرأون من كتب، وأنا أحاول بكل ما أوتيت قلباً وعقلاً أن أجلو معنى ما فعلتم هنا وأن أعبّر عن بعض الآمال لمستقبلكم – في حدود خمس عشرة دقيقة، مرت منها واحدة بالفعل! وحيث إنني خلال الأعوام الستة والأربعين التي قضيتها في الجامعة الأمريكية بالقاهرة فكرت كثيراً في أهداف هذه المؤسسة وغاياتها، فقد رأيت من الأصلح أن أستغل هذه الفرصة في الإفصاح عن تلك الأفكار عند تقاعدي. ولكن اسمحوا لي أولاً أن أشير إلى ما كانت عليه تلك الأفكار يوم جئت إلى هنا. في أحد الاجتماعات الأولى التي حضرتها في الجامعة الأمريكية بالقاهرة وكان يضم أعضاء هيئة التدريس – وكنا وقتذاك عدداً محدوداً – طُلب من كل أستاذ أن يعبّر عما يتمنى تحقيقه من خلال التدريس. بهرتني وقتها الأهداف الكبيرة المطروحة بقدر ما أثارت فزعي، وقد تنوعت بين تكوين طلاب أصحاء نفسياً إلى مواطنين مسؤولين، وزوجات وأمهات صالحات وأزواج ناجحين، إلخ.

* ألقت دوريس إنريت–كلارك شكري هذه المحاضرة في حفل تخرج طلاب الدراسات العليا في الجامعة الأمريكية بالقاهرة في ٢٠٠٢/٢/٥. وقد ألحق بالنسخة المطبوعة من المحاضرة هامش هذا نصه: إلى القارئ: «إنني أوظف بمواهبي المتواضعة ما التقطته من أعمال الشعراء الكبار الذين جاءوا قبلنا مع واجب الاعتراف لما أدين به إلى متحدثين سابقين مثل جيمي ريدفيلد وإدوارد سعيد، وبشكل خاص إلى أستاذتي إلينور جريس كلارك، طاب ثراهم».

وأنا، صغيرة السن، حديثة التخرج، شعرت بعجزي عن أن أكون ذلك العالم النفسي أو الأخصائي الاجتماعي أو المحلل السياسي، وإن كنت قد شعرت بالفخر وأنا أتصور نفسي كالأطلس آخذة على عاتقي حملاً ثقيلاً وأنا أقف أمام طلبتي لأدرس تشوسر Chaucer. وبحثت في أعماق نفسي، محاولة قبل كل شيء أن أكون أمينة وألا أقع أبداً في شرك الادعاء والتزييف، فلم أجد ما هو أكثر أهمية من القول إنني بتدريسي تشوسر آمل أن أزرع في طلبتي فهماً لأعمال تشوسر وحباً لها وأن أحاول ما استطعت أن أعيد الروح لرؤيته للحياة. وبسبب قولي هذا اتهمت بالنخبوية في كثير من الدوائر، ووقعت فريسة جدل دار سنوات حول الأهداف التي تسعى الجامعة الأمريكية بالقاهرة، بل وغيرها من الجامعات في العالم النامي، إلى تحقيقها. وبرز كثير من التساؤلات، كان أهمها بالنسبة لي هو ما إذا كان الأدب، وخاصة الأدب الغربي، مادة مناسبة للتدريس في بلد كمصر بما لها من احتياجات مادية. وبدا أنه مادة ستختفي من المقررات الدراسية حتى يتم حفر آخر خط مترو وتركيب آخر خط تليفون وحتى تنتهي توعية الشعب كله بوسائل تنظيم النسل! بدا وكأن الأدب من حق البلدان الغنية وحدها مثله مثل البخوث. بل إن أحد الأساتذة قال: لا ينقصنا إلا أن تطالب الدكتورة دوريس شكري بتدريس الموسيقى!

وينطوي القلق من تدريس الأدب ضمناً على قضيتين، أولاهما تتعلق بالمادة نفسها والأخرى تتمثل في الحساسيات الثقافية. ولنتحدث عن النقطة الأخيرة أولاً، فكثيراً ما أثيرت حاجة الجامعة الأمريكية إلى التقليل من التركيز على الدراسات الأمريكية والغربية على أن يكون التركيز على كوننا في القاهرة. وجرى الحديث عن دورنا كجسر بين ثقافتين، ولكن الإحساس بالاختلاف والخوف منه خلق في بعضنا رغبة في إخفاء رؤوسنا في الرمال وإيثار السلامة بعيداً عن مناقشة أي مادة أو تدريسها بما قد يؤدي إلى صدام بين الثقافتين. ونما اعتقاد بأن أي تخاذل في الالتزام الصارم بذلك سيطلق عفريت الشقاق من قمقمه، كما لو كان الاختلاف في حد ذاته خطراً، وكأن الشرق والغرب يتنافسان، كلٌ بما أحرز من تقدم وإنجازات، على احتكار الوصول لـ«الحقيقة» وأن أي تخلٍ عن الحذر وأي اقتراب من لب أي مسألة وأي كشف عن أفكارنا الحقيقية سيكون من شأنه بالضرورة أن يعلي كفة أحدهما على حساب الآخر. فكانت الأوامر: «نرجوكم الابتعاد عن الدين والسياسة، فنحن مجتمع مهذب له أخلاقه». ولا شك أن ذلك صحيح، ولكن المسألة هي أننا في جامعة، والمؤكد أن الجامعة تحمل معنى يتجاوز كونها مجتمعاً مهذباً، فهي مكان تلتقي فيه العقول لتنشغل دوماً وبحرية في بحث الأفكار وفي الدفاع عن مواقف فكرية معينة ومعارضة غيرها، وفيها يتصدى المرء للقضايا الكبرى بالنقاش محاولاً سبر أغوارها، وفيها يفتح المرء عقله ويعبر عما بداخله. والمؤكد أيضاً أن الاختلافات العرقية ليست بالأمر المهم. فالقضية ليست ما إذا كان المرء يتحدث العربية أو الإنجليزية، يأكل الهامبورجر أو الملوخية ويستمع إلى البيتلز أو أم كلثوم: فليبق الشرق شرقاً والغرب غرباً والبحيا الاختلاف».

المطلب، إذن، ليس جسراً نبنيه بين الشرق والغرب، ولا حتى بين الشمال والجنوب، ولكن أساساً أن نحاول خلق مناخ يشعر فيه كل امرئ بضرورة تجاوز حدود رؤيته

الخاصة للعالم، ويسمح لـ «جدران عقله (والرحمة على فرجينيا وولف) بالتضاؤل» فلا تمنعه من استيعاب أي شيء، فيلتقي عقله بالآخرين ويتداخل مع عقولهم. لذلك، لم يكن المطلب الأول حقاً هو مدّ الجسور، بل حفر الأنفاق ووصل كهوف بأخرى تعشش فيها المخاوف المستترة والملاذات السرية، ليدخل النور والهواء فتتفتح العقول والقلوب. إن آخر ما نحتاج إليه هو الاختباء في جيوب الغرب أو الشرق. وأول ما نحتاجه هو توضيح مفاهيمنا حول دور الجامعة ووظيفتها ومحاولة الاتفاق حول مبرر وجودها أصلاً. هناك من رأى أن على الجامعة أن تسعى بكل ما أوتيت لتكون وثيقة الصلة بالمجتمع، هذا في ظل هالة التقديس التي أحاطت بالاتصال بالمجتمع وخدمته وقتها، وكان المقصود، بذلك، الصلة المباشرة بمجموعة محددة عرقياً من البشر وعلى مدى وقتي آني، وكذلك الجانب العملي والتطبيقي لخدمة المجتمع. وكان منا من عارض هذا، إذ رأى أن التعليم منذ قديم الأزل كان غير ذي فائدة من حيث الصلة بالمجتمع بمعناها الضيق هذا. وانطلقنا في دفاعنا: لقد رأى المعلم منذ زمن سقراط دور التعليم في الأخذ بيد الطالب وفي أن يكشف وأن يضيف فضاءً وبعداً لا أن يقوم بالتدريب والضبط. ويأتي دور المعلم الذي يوفر الأمان لطلبته ويشجعهم، انطلاقاً من أرضه الصلبة، على الوصول لأراض أرحب لم تزل غائبة عن الأعين. من هذا المنطلق، كانت وظيفة الجامعة دائماً أن تتولى تطوير الطالب ليكتشف الإمكانات الكامنة بداخله والتي كان يجهلها وترشده وهو يحاول تثبيت قدميه في عالم أوسع. ورأى البعض أن الإعداد للعالم الخارجي يكون بأن تتشبه الجامعة بذلك العالم، فيكون الطالب أثناء وجوده هنا منشغلاً بمهام عملية وكأنما أصبح يجلس بالفعل على مكتب ويتقاضى راتباً. ولكن فكرة الجامعة هي تحديداً كونها شيئاً آخر غير العالم الخارجي، فالجامعة مكان يمنح حق البحث والاكتشاف، مكان آمن يتحصن المرء به ليجرب ويتبنى مختلف الأفكار بحرية مطلقة. هي مكان يتكلم فيه المرء ويقرأ ثم يقرأ ويقرأ كل شيء. «وسيأتي وقت تلتقي فيه الوجوه» المقدر لها أن تلتقي. «سيأتي الوقت».

ذلك هو مفهوم الجامعة الذي سعينا للحفاظ عليه عبر السنوات، فقد كان علينا في سعينا لخدمة المجتمع أن نكون على وعي حتى لا نجد أحد مجالات المعرفة والإنجازات البشرية وقد أُسقطت اعتباطاً بسبب انتفاء خاصية الصلة مع المجتمع منها. إن المؤسسة التي تسعى لخدمة المجتمع عليها مواجهة إغراء دائم بالتخلي عن دور الريادة والتحرك في اتجاه رغبات المجتمع، فالاحتياجات مباشرة وعاجلة وواضحة للعيان والمشاكل ملحة يصعب معها تفادي سيكولوجية الأزمة والطوارئ وسياسة سد الخانة. ولا شك أن الحساسية التي نعانيها تجاه التطلعات الوطنية والمشروعات والأهداف المباشرة ستملي علينا تخريج طلاب قادرين بحق على خدمة قضية بلادهم وأهدافها. وهنا يكمن الخطر، ليس في فشلنا في تخريج مثل هؤلاء الطلاب، ولكن فيما يترتب على تلك الرغبة الملحة في توفير الدعم العملي من نتائج تسري عميقاً تحت السطح، إذ تنطوي على افتراض غير معلن بأن المجتمع أدرى بما يجب على الجامعة أن تقوم به. فنحن إذا ما مددنا خط هذه الفكرة على استقامته سنصل لتصور مؤداه أن الطالب زبون يأتي للجامعة كما يأتي لسوق يشتري منه بعض المعلومات والمهارات، ويسعى للتعليم كسعيه لسلعة، سلعة

جاهزة، وكأن مقاييس العلم والخبرة الحالية دائمة ولا مجال للطالب أو الجامعة لتطويرها وتنميتها، أو على الأقل كأن اتجاه ذلك التطور والتنمية مسألة مفروغ منها في مستقبل لا يمكن لأكثرنا ألمعية أن يتنبأ أو يحيط به. وكلما زادت احتياجات المجتمع المادية بدا منطقيا المطالبة بمثل تلك المؤسسة والرغبة في وجودها. وهنا كما قلت يصبح الإغراء شديداً بالنسبة للجامعة فيصبح خلق التوازن بين التجاهل التام لاحتياجات المجتمع والتخلي التام عن مفهوم الجامعة بوصفها مكاناً للتعلم أمراً يتطلب الكثير من الفكر والاجتهاد. ولقد كافحت الجامعة الأمريكية ولا تزال تكافح كل يوم للحفاظ على ذلك التوازن. وكلنا أمل في أن نكون وفقنا ولو بقدر في أن يعيش كل طالب منكم هنا تجربة تحرر يُعمل فيها عقله بصورة لا تجعله فقط قادراً على مواجهة حياته المهنية بل يتجاوز ذلك إلى القدرة على التعامل مع المشكلات التي سيواجهها في عالم يموج باستقطابات خطيرة، استقطابات لم تعد استقطابات الشرق والغرب بل واستقطابات العولمة، عالم يتحول بشكل متزايد إلى مكان «أفضل من فيه لا يملك إيماناً بشيء/والأسوأ تملؤه العواطف الجياشة». لقد سعينا، لا لتدريبكم على التوافق مع ذلك العالم، ولكن لتعليمكم كيفية خلق عالم أفضل فتنضموا بذلك إلى قوائم أصحاب العقول في مواجهة ملفقي التبريرات، لتكونوا المدافعين عن المُثل في مواجهة مروجي الدعاية وأصحاب قناعات في مواجهة التطرف. وستدركون لحظة دخولكم ذلك العالم أن ملفقي التبريرات، أينما وجدوا في الغرب أو الشرق، من هوليوود إلى تل أبيب وحتى كهوف تورا بورا، كلهم مروجو دعاية لكونهم المؤمنين الحقيقيين، المسيطرين، الذين تملؤهم المرارة والمتبجحين باستقامتهم، لا يعرفون التسامح في دفاعهم عن التسامح ولا يعرفون العدل في دفاعهم عن العدل ويسارعون باسم الله أو الوطن أو باسم هذه القضية أو تلك إلى قتل آلاف العاملين ببرجي التجارة أو عشرات الأطفال في أوكلاهوما أو بقتل محمد الدرة في فلسطين أو أطباء عيادة تنظيم النسل في جنوب الولايات المتحدة. إنهم يعيشون في عالم من الشعارات يدور حول نفسه، عالم من المظاهر وخداع الذات، يعنيه فقط قول الشيء الصحيح وليس فعله. وللكلمة سلطة قائلها وهي قادرة، إذا ما أخذتها عنه، وتلاعبت بها بمهارة، على إخراجك من النار لتدخلك الجنة، ومن السجن إلى البيت الأبيض. والجامعة اليوم كلها أمل أن تكون قد خلقت بكم ضرباً من البشر يستطيع أن يظهر بأفكاره وأفعاله أن «الفوضى لم تعم مجدداً» وأن الحق والعقل والوضوح والنظام أشياء لا تزال موجودة في العالم، مهما دارت الدائرة وشاء العتاة.

كانت هذه المقدمة طويلة لأصل إلى سؤالي الثاني: لماذا الأدب؟ فتحملوني بضع دقائق أخرى وسوف أحاول أن أطرح فكرتي. أعرف أن معظمكم سيحصل على شهادته اليوم في مجالات تحظى بمزيد من القبول في مصر – وهي المجالات العلمية والعلوم الاجتماعية – وكلها لا تحتاج إلى مسوغ. ولكن سيظل هناك من قد يسأل: لماذا الأدب؟ صحيح. فالأدب ليس هو الحياة. ولا يطعم الجائع ولا يحد من الانفجار السكاني. ولكنه مع ذلك يفضح ملفقي التبريرات والملتفين حول أنفسهم ويطرح رؤية للواقع لها فعل الدواء. الأدب مستقل بذاته لا يدين بالولاء للتنظيمات والأحزاب

وأجهزة الحكومة: فالفنان يستطيع الوصول إلى العقل الباطن، إلى حكمة البشر، وهو غير منشغل بالعلاقات الدولية ولكنه معني بالعالم في كليته. وكما يقول يونج: «إنه يرتفع بالفكرة التي يحاول التعبير عنها من مجال العارض والمؤقت إلى مجال الدوام» ويقول يونج عن الفنان إنه «ليس مجرد إنسان ولكنه الإنسان الجمعي». كما كان يؤمن أن الفن هو «جسر الإنسان للحكمة الجمعية». «فالفن يحول المصائر الشخصية إلى مصير الإنسانية. ويتيح لنا الفرصة للرجوع إلى منابع الحياة». فالفن حقا، كما رأت جماعة بلومزبري Bloomsbury Group «هو الوسيلة الوحيدة التي يستطيع من خلالها الإنسان أن يوصِّل لغيره من البشر جوهر تجاربه وطبيعتها». فالفن سيظل دائماً وأبداً له أهميته.

لقد كنت أعتقد حين جئت إلى هنا، وما زلت على إيماني هذا وأنا على وشك الرحيل، أن على هذه الجامعة أن تتيح لطلابها أقصى ما توصل إليه الإنجاز البشري وكل ما يمد الإنسان بالقدرة على الحياة من أعمال فنية عظيمة وأفكار عظيمة لعقول عظيمة وبصيرة برؤيتها، في أي مجال كان، وكل ما يوفر جسراً يمتد ليصلنا بالحكمة الجمعية للإنسان، وبذا تستطيعون رؤية الحياة في أسمى صورها ويملؤكم الحماس لتقبلها واحتضانها، بكل ما فيها من تنوع جميل، مدركين كم كنتم محظوظين بلقائكم هؤلاء العمالقة والعيش بينهم والارتقاء على أكتافهم «لتروا أبعد من هؤلاء العمالقة أنفسهم» على حد قول القديس أنسلم.

وأخص الدراسات العليا هنا في ذلك الاعتماد على العملية التراكمية التي يستند فيها الباحث على إنجاز من سبقوه ويبني عليه: فأول مهام الباحث هي بالفعل دراسة الأعمال السابقة والاعتراف بها كنقطة انطلاق له. وهنا تكون الأمانة المطلقة من الأهمية بمكان وكذلك القدرة على التمييز. وأنا على ثقة من أن دراستكم العليا قد زرعت فيكم التعامل بعقل مفتوح قادر على استقبال آراء الآخرين وكذلك على رفضها. إن المضي قدماً في الاستكشاف الكامل الحر الذي لا يخشى من دحض ما يصل إليه من نتائج ولا من الوصول إلى غير ما يعتقده، ولا يخشى كذلك من أن يضطر إلى التحول عن رأيه في منتصف الطريق أثناء العمل، هو درس لابد وأنكم تعلمتموه. وتلك العادات من الدقة والأمانة والانفتاح على الأفكار هي ما تحملونه معكم وأنتم تنتقلون الآن إلى العالم الرحب. وربما لن تتاح لكم الفرصة خارج الجامعة، اللهم إلا إذا كان نصيبكم من الحظ وافراً، لمقابلة عمالقة الفكر الذين غذّت أعمالهم عقولكم في السنوات الماضية. ولكن بمقدار ما أخذتم عنهم القيم العليا والعقل والمرونة في التفكير وكذلك التواضع في تقويم النفس ستكونون قد قدمتم اعترافاً بفضل هؤلاء العمالقة الذين تقفون على أكتافهم بإسهامكم الخاص لتلحقوا بمسيرة الرجال والنساء الأمناء الذين «ينظرون للحياة بثبات ويرونها ككل» ويشكلون الأمل الوحيد للمستقبل.

تحية ووداعاً، سلاماً ومع السلامة. أحبيكم وأتمنى لكم كل خير.